# الفصل الأول

## اتجاهات البحث النصي في التراث

بدايات :

بدأ الانشغال بالإعجاز اللغوي للقرآن الكريم منذ وقت مبكر، وبشكل لافت للنظر، وتجسّد تلك القصة التي أوردتها لنا كتب السيرة حول موقف الوليد بن المغيرة، حينما سمع القرآن لأول مرة، وعاد ليصف لقريش رأيه فيما ذكره الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وتذكر لنا الروايات وصفاً دقيقاً لصنيع الكفار حول تصنت كل من : أبي جهل وأبي سفيان، والأخنس بن شريف منفرداً؛ لسماع القرآن، وعودة كل منهم إلى بيته على ألا يعود أحدهم مرة أخرى[1]، وبقي الأمر مقصوراً على الملاحظات الفردية التي لم ترق إلى حد البحث، وهكذا إلى أن بدأ النزاع بين علي (كرّم الله وجهه) وبين معاوية (رضي الله عنه) يأخذ شكلاً مغايراً، ثم بدأت مرحلة ثالثة مع الفترة الأخيرة منذ أواخر الدولة الأموية، وبالتحديد في أيام الخليفة "مروان بن محمد" آخر خلفاء بني أمية، ويشير الأستاذ نعيم الحمصي إشارة صريحة إلى أن "مروان بن محمد" كان يرى رأي مؤدبه الجعد بن درهم، وكان يصرح بخلق القرآن، وأنه ليس معجزا، في دمشق عاصمة الأمويين، وكان الخليفة فيما يظهر يرى رأيه، أو يسكت عليه، حتى نسبه بعضهم بمروان الجعدي[2].

وجاءت الدولة العباسية، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية، ودخلت أمم من غير العرب في دين الله، لها ثقافتها وعاداتها وأنماطها المائزة عن نمط الحياة التي اعتاد عليها العرب في مناقشاتهم وطريقة إدارة الحوار، ومن ثم واجه العرب نوعاً جديداً من أنماط التفكير، كان له الأثر الأكبر في ذلك الصراع الذي دارت رحاه في الدولة الإسلامية، وكان ثمة نوع من الناس متخفين، يظهرون الإسلام ويعملون بغيره، وهذا هو المحك الحقيقي الذي فجر الطاقات، وشحذ الهمم لعلماء المسلمين أن يتباروا للدفاع عن القرآن ضد من أراد له سوءاً، حتى أولئك الذين ألفوا في قضية الإعجاز القرآني لم يسلم بعضهم من النقد، وذلك أنهم نسبوا الإعجاز إلى "الصرفة"؛ بمعنى أن الله صرفهم على أن يأتوا بمثله، وأن مرد ذلك ليس إلى ما فيه من انخلاف

---

(1) ينظر حول تفصيل القول في ذلك د.محمود السيد شيخون : الإعجاز في نظم القرآن ص ٩، ١٠.

(2) نعيم الحمصي : فكرة إعجاز القرآن ص ٣٧ .

وانـــتظام وانسجام وتعالق، كما سيأتي، إلا أن الله قيض لأولئك أن يرد سهامهم وشرورهم إلى نحورهم .

وجملـــة القول إن نشأة قضية "الإعجاز القرآني" ، كان لها ظرفها الخاص، الذي غذى تلك البيئة بما هيأ لها أرضاً خصباً، ويجمعها عدد من العناصر منها :

١ــ دخـــول عـــدد من الأمم في دين الله (الإسلام) التي لها ثقافات وعادات مغايرة، كما هو موجود عند العرب .

٢ــ محاولة الطعن والنيل من الإسلام مجسداً في القرآن دستور هذه الأمة .

٣ــ ذلك الجدل اليوناني الذي حاولت فيه هذه الأمم، خاصة أن أبناءها تستخدمه ضد القرآن للنيل منه والطعن فيه .

عـــلى أية حال ، فإنني على يقين من أن الله يقيّض لدينه من يدافع عنه، ويشكّل هذا الدفاع ثراء وكشفاً لأسرار جوانب حية في النص القرآني، تمثلت بوضوح في تلك المؤلفات التي أنتجها الباحثون في الإعجاز اللغوي والبلاغي بشكل محدد .

## ٢/٠ : اتجاهات البحث النصي في التراث

### ١/٠/٢: اتجاه البحث النقدي :

يتركز عمل هؤلاء القوم حول تقديم نقد أدبي، يعني فيما يعني بتقديم الأعمال الشعرية لـــبعض الشعراء، وما يتصل بذلك حول تفضيل جيد الشعر من رديئه، وتجسد أعمال قدامه بن جعفـــر (ت ٣٣٧هـــ) في كتابه:"نقد الشعر" وابن المعتز (ت٢٩٦هـــ) في كتابه "البديع" وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـــ) في كتابه "الشعر والعشراء" وأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـــ) في كتابه "الصناعتين"، وابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـــ) في "عيار الشعر" بشكل لافت للنظر، وتحتاج هـــذه الأعمال إلى غربلة ؛ لاستخلاص ما يمكن استخلاصه، فيما يمكن أن يقدم إسهاماً حقيقياً للدرس اللساني/النصي المعاصر .

### ٢/٠/٢: اتجاه البحث البلاغي :

اختلفت الاتجاهات التي عالجت تاريخ البلاغة تبعاً لاختلاف النهج، غير أن الذي يقع في حوزتـــنا هـــنا، هي تلك التي قامت حول تقديم صيغ متنوعة لتحليل نصي، إن صح التعبير،

ونعني بها تلك التي ولّت وجهتها شطر البلاغة بشكلها المعياري الخالص، وتعد دراسة الإمام عبد القاهـــر، رحمه الله ، في "الدلائل" و "الأسرار" النضج الفعلي والثمار الجنية لتلك التي تقدمته، وبالـــتالي يأتي عمله كنقطة تحول غير مسبوقة، في تاريخ البلاغة، مما دعا خالفيه أن يأخذوا بعين الاعتبار تلك المقولات النقدية من جهة، واللغوية من جهة أخرى، في تقديم تفسير أرحب، يعتمد عدداً من المناهج .

غير أن الذي بقي مائلاً ـــ ولا مفر منه ـــ أن فكر الشيخ عبد القاهر أخذ يتبدى في صـــيغ شتى، واتجاهات متفرقة تبعاً لذلك النهج ، وتوضح الدراسات التي قامت حول كتابات الجـــرجاني صدق ذلك، فقد قدم السكاكي "مفتاح العلوم" محاولاً أن يقدم صورة أشمل وأكثر تطويراً ووضوحاً، تتبدى فيها معالم الدراسة النصية للأدب بشكل أكثر بروزاً، ومن جهة أخرى، قدّم الرازي صوراً أخرى لفكر الشيخ، أراها لا تقل أهمية، إن وجهت الوجهة الصحيحة، عما اقترحه السكاكي،أما الزمخشري، فأسبقهم زمناً، وطبق آراء الجرجاني، كما حاول أن يختبر مدى فاعلية تلك الآراء تطبيقاً عملياً في "الكشاف".

وخلاصـــة الـــرأي عندي، أنه نظر إلى القضايا الملحة، فيما يرتبط بتفسير النص، كعلاقات التضام، والربط والالتفات والتكرار، ووظائف الحروف،ودور هذه العناصر في تماسك وفاعلية بنية النص. والذي يفرق الزمخشري عن غيره من لاحقيه، أنه قدم ذلك عملياً من خلال تفسيره، بيـــنما قدم اللاحقون صيغاً في دراسات محددة، وأظن وأخالني مصيباً، أن الفكر البلاغي العربي، يحـــتاج أن يقـــدم بشـــكل آخر من منظور اللسانيات النصية، يقترح الأبعاد الحقيقية التي تمثل استثماراً واعياً للسانيات النصية لها .

## ٢/٠/٣: اتجاه البحث في علوم القرآن :

بـــدأ هـــذا الاتجاه متأخراً نسبياً ، وبالتحديد مع بداية مطلع القرن السادس الهجري، ويشـــكّل البحث في القرآن الكريم السمة الجوهرية الفارقة لهذا التيار، بيد أنه أخذ يتشكل من خلال مبادئ جوهرية مائزة، وتأتي دراسة كل من الزركشي (ت ٧٩٤هـــ) في "البرهان في علوم القـــرآن"، والعلـــوي (ت٧٤٩هـــ) في "الطراز"، وابن الأثير(ت ٦٣٧هـــ) في المثل السائر، والسيوطي (ت٩١١هـــ) في"الإتقان في علوم القرآن" تمثل الملامح الأساسية لصلب البحث في

علوم القرآن ، وهي تتمركز بشكل مباشر حول قضايا يمكن أن تمثل بداية فعلية لـ"نحو النص" العـربي، وقضـايا مثل:التكرار والتضام والربط بأشكاله المختلفة، تمثل صلب البحث في هذه المؤلفـات، باعتبارها ظواهر أساسية لتضافر عناصرها في تماسك بنية النص، وهي قضايا أساسية بالنسبة لـ"نحو النص" .

## ٢/٠/٤: اتجاه البحث في التفسير/التفسيري :

تشكّلت الملامح الأساسية لهذا الاتجاه بالنسبة لتحليل النص القرآني في وقت مبكر " وقـد أتاحـت لهم طبيعة عملهم أن يقدموا تفسيرات ملحوظة إلى جانب المقولات النظرية في مواضـع من تفسيراتهم للنص القرآني، وبروز دورها في تحقيق الترابط بين أجزاء النص القرآني، وإمكـان دراسـتها في سياقات متباينة، وفي أبنية مختلفة في إطار القرآن وحده، دون توسع في معالجة الربط في نصوص أخرى" [1] .

وقد تضمن الاتجاه التفسيري العام عدداً من الاتجاهات التي تقع داخل دائرته بما شكّل مـنها اتجاهات تفسيرية متباينة، فثمة تفسير بالمأثور وثان بالرأي المحمود وثالث بالرأي المفهوم، وواضـح أن هـذه التفاسير ــ على الرغم من التباين فيما بينها ــ قريب من قريب، وأن هذه التفريعات، إنما هي في عاقبة الأمر وخاتمته، تصب في رؤى مختلفة، تعمل جميعها على إثراء النص القرآني من جهات عدة، وحاصل القول إنها تعتمد زوايا متباينة منها : الاتجاه الذي يركز جاهداً عـلى القصـص القرآني، كتفسير ابن كثير، ومنها ما يعتمد الجانب البلاغي والنحوي كتفسير "الكشـاف" للزمخشـري، أما تفسير القرطبي والطبري، إنما يوضحان جوانب لغوية وقراءات قرآنـية، إضافة إلى عدد من القضايا الأخرى، وإذا كانت هذه التنوعات التفسيرية لا تخرج عن كونهـا جملة واحدة، فذلك لقاء اتجاه إيدولوجي آخر، أعني به تفسير الإسماعيلية، إذ يقوم على دعامات أخرى مغايرة لمنطلقات الاتجاه الأول .

ونشـير إلى أن ثمة اتجاهاً آخر، يمكن أن يضاف من خلال تصورين/موقعين ، الأول : يقـع ضمـن حوزة الاتجاه التفسيري ، من خلال الاتجاه العـام في هذه المؤلفات . الثاني : أنه يمثل بداية فعـلية للبحث في الإعجـاز القـرآني، ويمثـل هـذا الاتجاه كـل من الفـراء

---

(1) د. سعيد حسن بحيري : من أشكال الربط في القرآن الكريم ص ٨٠ .

(ت ٢٠٧هـ) : معاني القرآن . أبي عبيدة (ت٢١٠هـ) : مجاز القرآن . الزجاج (ت ٣١٠ هـ) : إعراب القرآن المنسوب للزجاج، ومعاني القرآن وإعرابه . النحاس (ت ٣٣٨هـ) : إعراب القرآن، على سبيل المثال لا الحصر .

وتشكّل هذه المؤلفات جوهر البحث في هذا الاتجاه، واعتماداً على هذا النهج تحددت السمات والمبادئ الأساسية له في إطارها العام، إلا أن استظهار هذه الدراسات يبين بوضوح المواثر الخاصة لكل دراسة على حدة، وفي تصوري أن هذا الاتجاه يمثل نموذجاً مهماً للبحث في الإعجاز اللغوي للقرآن، بشكل ضمني، إذ لم تشر هذه المؤلفات إلى أنها أقيمت في الأصل لهذا الهدف . ومن ثم تحتاج إلى دراسة موسعة في ظل الاتجاه النصي؛ لمقارنة النصوص واستخلاص النتائج التي يمكن أن يفيد منها علم اللغة الحديث، فيما يشبه التواصل البحثي بين القديم والحديث .

## ٢/٠/٥: اتجاه البحث اللغوي :

جاء عمل هذا الاتجاه في صورة تقديم تفسير/شرح لعدد من القصائد لعيون الشعر العربي القديم، كتلك التي قدمها الزمخشري(ت٥٣٨هـ) وابن كيسان(ت٢٩٩هـ) للامية العرب للشنفرى، وشرح معلقة طرفة برواية أبي بكر أحمد بن محمد الفضل بن الجراح لابن الأنباري، وشرح قصيدة "بانت سعاد" لابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)، وشرح معلقة امرئ القيس لابن كيسان، وشرح معلقة عنترة برواية أبي بكر أحمد بن محمد الفضل الجراح لابن الأنباري، وشرح ديوان زهير بن أبي سُلمى للإمام أبي العباس ثعلب (ت ٢٩١هـ) .

وتعتمد هذه الشروح جميعها على تقديم تحليل، إما بالاعتماد على تقديم تفسير لمعاني الكلمات المعجمية، أو التركيز على الناحية الإعرابية، ومما لا شك فيه أن هذا الصنف من تفسير الخطاب، يعطي مبادئ أولية، ويتبين هذا بشكل أكثر بروزاً في تقديم مفاتيح الكلمات، وما يقوم به الإعراب من إيضاح لجانب من جوانب العلاقات التركيبية، وإن كان هذا لا يرقى إلى ما نطمح إليه في هذا البحث .

## ٢/٠/٦: اتجاه البحث في الإعجاز القرآني :

انشغل الباحثون في إعجاز القرآن الكريم بقضايا مختلفة شكلت جميعها أساساً للبحث فيه، وإن نال الإعجاز اللغوي والبلاغي حظاً موفوراً من الباحثين باعتباره مناط الإعجاز الحقيقي، حسْب رأي جمهور الباحثين فيه، وبالتالي جاءت المؤلفات في هذا الجانب كاشفة عما يمكن أن يمثل سبكاً وحبكاً للنص القرآني من جهة، وتضافر عناصره من جهة أخرى .

جاء كتاب "إعجاز القرآن" للباقلاني يمثل نقطة تحول فاصلة في تاريخ البحث في هذا الاتجاه، كما أن كتاب "معترك الأقران"، يحتاج إلى من يكشف عنه اللثام، وأن يسكن مسكنه من الدراسات العربية التراثية التي يمكن أن يفيد منها الدرس النصي، فيما يعرف بالتواصل البحثي الذي ربما يعكسه هذا البحث، أو يعكس جوانب منه، وسوف يركّز هذا البحث على المعايير الأساسية التي ركز عليها أصحاب هذا الاتجاه، وإن كنّا لا نغفل العناصر العامة الأساسية لدى أصحاب الاتجاهات النصية من خلال التراث .

وإذا كانت تلك الاتجاهات متفاوتة في كيفية التركيز على تلك العناصر بما يشكّل منها سمة فارقة، فإننا نعرض موجزاً للعناصر الأساسية عند أصحاب كل اتجاه في المطلب التالي :

## ١/٢ : معايير النص في الاتجاهات التراثية :

### ١/١/٢: معايير النص في الاتجاه النقدي(*) :

#### ١ ــ تماسك المفاصل:

لـ أن يكون متماسك النسج

ب ــ أن يكون نمط النظم مناسباً للغرض .

ج ــ تقديم المهم فالأهم .

د ــ أن تكون بين أبياته علاقة اقتضاء: كالسببية والمحاكاة والتفسير..الخ .

---

(*) استخلصنا معايير النصية لكل من الاتجاه النقدي والبلاغي وأصحاب علوم القرآن والمفسرين من خلال ما توصل إليه الأستاذ محمد خطابي في : لسانيات النص ص ٢٠٥.